«الإمبريالية هى النتيجة الضرورية والمنطقية للعولمة».

(صموئيل هنتنجتون: الغرب متفرد وليس عالميًا ـ (Foreign Affairs, 45/ Nr. 6. p. 41)

«هناك مؤشرات تدل على أن الإسلام سيشكل فى غضون السنوات القادمة خطرًا عظيمًا».

(رئيس جمعية حماية الدستور: بيتر فريش، بمجلة Der Spiegel 36 /1997 p. 58)

ـ ١ ـ

بعد أن كونا صورة محيرة عن الغرب والشرق، علينا أن نتجه بأنظارنا إلى المستقبل لنجيب عن التساؤلات الآتية: ما التغيرات التي يجب أن تتم فى كلٍّ من الجانبين؟ ما الذى يمكن أن يعلمه أحدهما للآخر؟ وكيف يمكن لكلٍّ من الغرب والشرق أن يستفيد من الآخر؟

لكن هذه النظرة الإيجابية إلى المستقبل يحجبها ماض سيئ يمتد إلى سنوات طويلة من الخصومة بين الشرق والغرب، فما زالت الذاكرة الجمعية للشرق والغرب تحمل ذكريات لسنوات طويلة من الصراع والأحداث السيئة. وكل هذا يعرقل التوجه إلى مستقبل مشرق، يتسم بالتعاون والعلاقات الودية. ولن يتحقق هذا المستقبل المنشود إلا بعد إزاحة أنقاض علاقات الماضى ـ خصوصًا العاطفية منها ـ عن الطريق، ولا بد أن يتم هذا عن طريق دراسة تخلو من كافة المحرمات، أى دراسة تتطرق إلى جميع العناصر التى حكمت ـ ولا تزال تحكم ـ العلاقة بين الشرق والغرب، حتى تمهد الطريق ليصبحا شريكين فى صنع المستقبل.

سيحاول هذا الفصل أن يغوص فى تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب ومواجهاتهما.

ـ ٢ ـ

تحيط المسيحية والإسلام البحر المتوسط كديانتين عالميتين، وبحكم طبيعتيهما يشكلان خطرًا كلٌ منهما على الآخر، فكلٌ منهما يريد أن يتوسع، وربما يكون ذلك على حساب الآخر.

ولقد عبر چيڤارا عن مثل هذه الفكرة عندما تحدث عن الشيوعية، وهى بطبيعتها فكر عالمى، يستهدف الانتشار فى العالم كله، وألّا يكون مقصورًا على جماعة دون غيرها، فقال: «لا نستطيع أن نَعد بألا نصدر نموذجنا إلى العالم؛ لأن نموذجنا هذا أخلاقى، والنماذج الأخلاقية لا تَعرف الحدود»(١).

ولقد عبر حسن الترابى عن نفس الفكرة فى حديثه عن الإسلام: «نحن نشكل ـ بهذا المعنى ـ خطرًا إذا ما انتقل نموذجنا هذا وانتشر»(٢).

أما الكنيسة الكاثوليكية، فقد عبرت عن هذه الفكرة منذ زمن بعيد فى إعلانها المشهور «لا خلاص خارج الكنيسة» ولقد دفعت أعداد لا حصر لها من العبيد والهنود والچيرمان(*) حياتهم ثمنًا لهذا المنهج، كما ساعد هذا المنهج محاكم التفتيش الكاثوليكية على العمل مرتاحة الضمير. وإذا كانت دعوات التبشير الموجهة للمسلمين فى شمالى إفريقيا، واجبًا دينيًّا وعملًا صالحًا من قِبَل القائمين على العمل بالكنيسة فى شمالى إفريقيا، فإن المسلمين يَعُدُّونها عملًا عدوانيًّا، يتسم بالكثير من الصلف والتكبر.

كذلك يعرف الإسلام منظمات للدعوة إلى الإسلام، وينظر إلى دعوته هذه على أنها عالمية لا يحدها زمان ولا مكان. فالإسلام، فى النهاية، بمعناه الحرفى والجوهرى، أن تسلم نفسك لله. والإسلام كذلك دعوة توحيد تصلح لجمع الإنسانية.

ولذلك، فالمسلم هو كل إنسان يؤمن بالإله الواحد الأحد ويخضع له ويسلم نفسه، سواء كان هذا الإنسان، يدعو نفسه يهوديًّا أو مسيحيًّا أو مسلمًا. ولذلك، فالقرآن يتحدث عن إبراهيم كمسلم فى معناه الحقيقى الشامل. ويُعَدُّ الإسلام تاريخيًّا أحدث وآخر الديانات السماوية الموحدة التى أنزلت للبشر، ولكن عقائديًّا وفكريًّا فالإسلام أقدم هذه الديانات. فالقرآن يقول: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

عندما تحدث القرآن عن الإسلام فى بعض آياته التى أنزلت فى أوائل سنوات الوحى، كان المسلمون الأوائل يفسرون الكلمة حرفيًّا، أى أن يسلم المرء نفسه لله.

---

(١) نقلًا عن: «Intervention & Revolution, Richard Barner - New York, 1972»، ص ٦.

(٢) الترابى (١٩٩٣) ص ٧٢.

(*) القبائل التى كانت تعيش فى أرض ألمانيا الحالية ـ (المترجم).

لقد عَدَّ المسلمون رسالتهم مهمة عالمية منذ البداية. ويتضح هذا فى عام ٦٢٨، أى قبل فتح مكة، وذلك عندما بعث محمد ﷺ برسائله إلى حكام الممالك التى تحيط به، مثل قيصر بيزنطة هيراقليوس، والشاه الساسانى فى فارس، والمقوقس بطريرك الكنيسة القبطية بالإسكندرية (هذا الكتاب الذى كتب على جلد، محفوظ حتى الآن بأحد متاحف إسطنبول). ولقد فسرت دعوة محمد ﷺ إلى الإسلام كطريق هداية بوصفها تطاولًا واستفزازًا لا يغتفر (لم يتغير الكثير فى هذا الشأن كما يتضح لنا من رد الفعل القاسى الذى تتلقاه فكرة رفع الأذان على منارة أحد المساجد فى ألمانيا)[٣].

منذ اللحظة التى بعث فيها ﷺ هذه الرسائل، بدأ خروج الإسلام من المحلية إلى العالمية.

لقد لاحت ـ من ناحية ـ خطورة أن يتحول الإسلام إلى دين قبلى للعرب فقط على نهج اليهودية، وساعد على هذا أن منصب الخليفة ظل إلى لمدة طويلة حكرًا على عربى من أصول قرشية. كما أخذ بعض العرب فى معاملة من اعتنق الإسلام حديثًا من الشعوب الأخرى على أنهم مسلمون من الدرجة الثانية. ولقد أدت التفرقة فى المعاملة وتفضيل العرب على غيرهم فى السنوات الأولى للدولة الإسلامية (أيام الدولة الأموية)، إلى ظهور حركات معادية للعرب عرفت بالحركات الشعوبية. وعلى الجانب الآخر، كان هناك خطر يهدد الإسلام، يتمثل فى استيعابه لتأثيرات غريبة عنه ـ مثله مثل المسيحية من قبل ـ مثل الأفلاطونية الجديدة، والمانوية، والزرادشتية، والغنوصية وغيرها من الاتجاهات الفلسفية والمعرفية العديدة. كان يمكن للإسلام أن يأخذ ـ فى محاولاته أن يكون عالميًا ومن خلال توسعاته الكثيرة ـ بمبدأ التوفيق والتلفيق بين اتجاهات عدة، ويتحول بذلك إلى دين شرقى مُخَلَّط.

يُعتبر مبدأ التسامح الدينى أساسًا يرتكز عليه الإسلام فى دعوته للعالمية؛ حيث إنه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[البقرة: ٢٥٦]. وهذا الأمر يستنكر، بل لا يقبل إجبار إنسان على اعتناق دين لا يرضاه بالقوة. كما ساعد على انتشار الإسلام عالميًا قبول الإسلام بتعدد الشرائع، والذى يتمثل فى أبلغ وأجل صورة فى سورة المائدة، الآيات: ٤٣ ـ ٤٧ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ

(٣) انظر بتاريخ ٢٤/ ٢/ ١٩٩٦ برنامج يصور رد فعل سكان مدينة «Dillenburg» على رغبة المسلمين المقيمين فيها والذى يبلغ عددهم ٢١٠٠ نسمة فى أن يبلغ صوت الأذان ٦٠ ديسيبل. لقد صدرت الشكاوى من مواطنين لم يسمعوا صوت الأذان أبدًا!؟.

بِمَآ ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۙ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وبفضل هذا التسامح الدينى، تعايش وتقبل المسلمون الديانات الأخرى وأتباعها، وهم يفعلون ذلك إلى الآن، ولم يحتذوا بالمثال المسيحى ـ لنذكر بونيفاتيوس مع القبائل الجيرمانية ـ ومحاكم التفتيش ـ على سبيل المثال ـ حين أجبر الأول أتباع ديانات أخرى بالقوة على اعتناق المسيحية، وأجبرت محاكم التفتيش المسيحيين على اعتناق إحدى صورها وإلا الحرق.

ويتجسد التسامح الدينى ـ هذا الأمر الذى ينص عليه القرآن ـ فى مظاهر متعددة، مثل بقاء اليونان على مسيحيتها بالرغم من حكم الأتراك العثمانيين المسلمين لها لما يزيد على ٥٠٠ عام، وكذلك مشاهدة المرء فى القاهرة وهو فى طريقه من المطار لكنائس تفوق أعدادها أعداد مثيلتها من المساجد. أما رؤيتك للكتاب المقدس وهو معروض فى واجهات المكتبات فى المغرب، وإضاءة الصليب الذى يعلو الكنائس ليلًا بأضواء النيون فى دمشق، فليست آخر هذه المظاهر، ولكنها ـ أى كل هذه المظاهر ـ إنما تمثل الجانب العملى من التسامح الدينى فى الإسلام.

أما الجانب الآخر لهذا الأمر، فهو قدرة الإسلام على الاحتفاظ ببقائه ـ دون ذوبانه فى معتقدات أو مذاهب وفلسفات أخرى ـ حتى فى ظل عالميته. وهذا هو السبب الذى دفع الغرب إلى النظر إلى الإسلام ـ برغم تعدده وتنوعه الداخلى ـ على أنه شكل وكيان ذو صبغة واحدة، ونظام صارم لا يعرف المرونة، يخشاه الغرب ويخافه.

هذا هو الوصف الدقيق للمشاعر التى حكمت علاقة الإسلام بالغرب، منذ القدم وإلى يومنا هذا: الرفض والخوف. لقد بدأ هذا منذ التوسع المذهل للإسلام فى القرنين السابع والثامن الميلاديين، هذا التوسع الذى ما زال يذهلنا حتى يومنا هذا، ولا نفهم أسبابه. ولكن ما كان للمحاربين العرب الذين لم يتعد تعدادهم عشرة آلاف أن يحققوا كل هذا النجاح ـ رغم حماستهم الدينية واستهانتهم بالموت، بل طلبهم إياه لنيل الشهادة ـ إلّا لأن مواطنى بيزنطة وفارس لجئوا إلى المسلمين واعتنقوا الإسلام بأعداد هائلة لثلاثة أسباب هى:

١ـ التسامح الدينى.

٢ـ نظام الضرائب وممارستهم لإدارة شئون البلاد، التى كانت أفضل، أو على الأقل أقل سوءا واستغلالًا ممن سبقوهم، ومحاولتهم لإقرار العدل فى شئون البلاد.

٣ـ كان التصور الإسلامى لصورة الإله ـ خاصة فيما يتعلق بالمسيحية (أى المسيح والله) أقرب إلى تصور الكثيرين من المسيحيين غير المؤمنين بالتصور الذى تعتنقه الكنيسة الرسمية وتجيزه، مثل الأريوسيين(*) (جماعة تنكر أن المسيح هو الله، ونسبوا إلى أريوس الذى اعتنق هذا الفكر).

لم يستطع العالم المسيحى سواء فى روما أو القسطنطينية ـ (فى العالم الغربى أو الشرقى المسيحى) ـ أن يتفهم هذا، ولم يفهموا الإسلام فى سياق التاريخ الدينى وما يمثله الإسلام. كان الإسلام أولى محاولات الإصلاح للمسيحية، أى محاولة إعادة المسيحية إلى جذورها الحنيفية الأولى، وبدلًا من تفهم هذه الحقيقة، أخذ الغرب ينشر أسطورة وأكذوبة توسع الإسلام «بالسيف»، حتى إنهم نسبوا إلى أولئك المسلمين المتوحشين إحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة(٤). كل هذا ليدافعوا عن أنفسهم وعن شعورهم بالتميز، ذلك الشعور الذى يهاجمه الإسلام، بل يضربه فى مقتل.

هذه الاتهامات ما هى إلَّا تزوير للحقيقة، ومع هذا فهى تفسير دائم لهذا الرفض والخوف من الإسلام، والذى يظهر إلى يومنا هذا، عندما ينسب العنف إلى الإسلام، وتجده واضحًا فى معالجة وسائل الإعلام المختلفة فى الغرب للأحداث مثل التى تقع فى مصر والجزائر.

لقد تأثر الغرب بالازدهار الثقافى والعلمى للحضارة الإسلامية وإنجازاتها، فى مراكزها المختلفة، سواء فى بغداد فى العصر العباسى أو قرطبة تحت حكم الأمويين، خاصة عن طريق علماء المسلمين فى الأندلس، مثل ابن رشد، وابن حزم، وابن عربى. ولقد امتد تأثير الحضارة الإسلامية على الغرب إلى مجالات عدة، مثل علم الكلام والفلسفة، وشعر الغزل والغناء، وإلى العمارة القوطية، وإلى مجالات الصحة والطب والرياضيات وغيرها. ولم تمنع الحروب الصليبية

(*) نشأت فى المسيحية منذ قيامها طائفة (الموحدون) الذين لا يرفعون المسيح إلى مرتبة الألوهية، وهم كانوا فى كل مكان بما فى ذلك مصر، وأولئك ـ كما قال المؤلف وغيره ممن كتبوا عن تطور المسيحية ـ ومنهم على سبيل المثال بارى ويلسون فى كتابه «How Jesus Became Christian» ـ اعتقدوا فى الإسلام واعتنقوه ـ (المترجم).

(٤) وهو الاتهام الذى ثبت علميًّا عدم صحته بالمرة، ولكنه لا يزال يتردد بأن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية الشهيرة بأمر من الخليفة عمر. انظر: Hunke (١٩٩٠).

تأثيرات هذه الحضارة. وبالرغم من ذلك، فلا يُعَدّ الجهل فى الغرب بهذا الازدهار والتأثير لهذه الحضارة العظيمة سقطة ثقافية أو نقص معلومات. فكلُّ الذى انطبع من الإسلام فى أذهان الغربيين على مر العصور هو المعارك الحربية، مثل الحروب الصليبية وحروب الأتراك العثمانيين التى أوصلتهم إلى أبواب ڤيينا، وليس الازدهار الحضارى والثقافى للإسلام، وفضله على حضارة الغرب وتقدمه، وإلا لما بدا الإسلام لـ «ماكس ڤيبر ـ Max Weber» كدين حرب[٥].

لم يصل الأتراك إلى ڤيينا فقط، بل هدد بعض فرسانهم الأجزاء الجنوبية من باڤاريا. لقد هدد الأتراك فى ذلك الوقت كلَّ أوروپا، وقد كان الإسلام دينهم، وذلك يفسر عنوان أولى ترجمات القرآن إلى اللغة الألمانية؛ حيث أسماها المترجم «Solomon Schweigger» عام ١٦١٦ «قرآن الأتراك: دين وخرافات»[٦]. أما الترجمة الثانية لمترجمها Johann Lange (١٦٨٨) فقد حملت عنوان: «كتاب الأحكام التركى الكامل، أو قرآن محمد».

أما فى زماننا هذا، فلم يأت الأتراك إلى ڤيينا فقط، بل إلى مدينة «كرويتسبرج ـ Kreuzberg»، ولكنهم لا يحملون سيوفًا، ولكن يحملون تأشيرات عمل مصدق عليها من قنصليات فى إسطنبول وأنقرة وأزمير، حتى تقابلهم أنت وتلقاهم كبشر جيران لك، وزملاء عمل أوزملاء دراسة.

ولكن هذا لم يؤد إلى زوال الخوف من الأتراك، بل ظل هذا الخوف على حاله يعشش فى نفوس الغربيين، ويؤدى بالتالى إلى أن يفرض الأتراك العزلة على أنفسهم.

ولذلك لا تندهش إذا قرأت عن فشل محاولات دمج الأتراك فى بلاد أوروپا التى استوطنوها منذ أجيال، أو عندما تقرأ عن رفض المجلس الأوروپى لضم تركيا إليه ومنحها عضويته؛ لأن كل هذا يحدث بتأثير الذاكرة الجمعية للشعوب، فالأتراك يشكلون خطرًا، وبالإضافة إلى ذلك فهم مسلمون.

ما زالت العقلية التى نتجت عن الحروب الصليبية، تشكل وتحدد العلاقات المشتركة بين الغرب والإسلام.

لقد أثبت كلٌّ من نورمان دانيال فى كتابه الذى يبعث على الاكتئاب: «Islam and the

---

(٥) نقلًا عن Salvator (1997) ص ١٠٢.

(٦) لقد تمت هذه الترجمة بفضل مارتن لوثر مع إضافات مثل المقدمة التى كتبها Melanchthon، وطبعت فى بازل عام ١٥٤٣، وهناك نسخة منها فى بيت القرآن فى المنامة.

West - Making of Image»، وكلود كاهن فى كتاباته عن تاريخ الحروب الصليبية، أن آباء ومؤسسى فكرة الحروب الصليبية، استعانوا لإشعال الكره ضد كل ما هو إسلامى ـ خاصة ضد محمد ـ استعانوا لتحقيق هذا بحملة متقنة؛ لنشر الجهل بكلِّ ما هو إسلامى وحجب كلِّ المعلومات الصحيحة، ونشر معلومات مغلوطة بين الناس.

فبالرغم من وجود ترجمة سليمة فى جوهرها للقرآن إلى اللغة اللاتينية منذ عام ١١٤٣ (قام بهذه الترجمة كلٌّ من Robertus Ketenesis, Hermanus Dalmata)، فإن ما قيل للفرسان الصليبيين بخصوص إيمان المسلمين بإله واحد أحد أى «لا إله إلا الله» حُوِّرَ إلى «لا إله إلا محمد»! لقد صُور محمد للفرسان على أنه ساحر، أو صنم، حتى قيل إنه كاردينال أصابه الفشل ومن ثم كان حقده على المسيحية عندما لم يتم اختياره لكرسى البابوية!

لم يتعامل الفرسان الصليبيون مع الإسلام على أنه دين آخر، بل على أنه خروج على المسيحية، وابتعاد عن تعاليمها الأصلية يجب محاربته بكل الطرق ـ حتى أبشعها ـ والتى شملت كل الفظائع وحمامات الدم وَشَىّ أطفال المسلمين، بل وأكل لحومهم (وفق مراجع تاريخية غربية) عندما اقتحموا كلًّا من القدس (١٠٩٩)، ودمياط (١٢١٩).

لقد شنت الكنيسة ٢٠٠ عام من الحروب الصليبية دون أن ينتصر العالم الغربى على العالم الإسلامى، وكذلك دون إبداء أى محاولة لفهمه إلا بعض الاستثناءات القليلة، مثل القديس فرانسيسكوس، والقيصر فريدريك الثانى، اللذين تأثرا بثقافة وتقوى وتسامح الملك الكامل. ولم يغير رأى هذين الشخصين من موقف الغالبية فى الغرب تجاه الإسلام، كما لم ينجح فى ذلك من بعدهما ليون الإفريقى أو الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٠ ـ ١٥٥٠) الرحالة بين عالمين وديانتين.

لقد نسبت ـ منذ ذلك الوقت ـ صفات إلى الرسول ونُعت بمفردات يستخدمها سلمان رشدى اليوم. كان محمد ﷺ وما زال إلى يومنا هذا عرضة لكلِّ اتهام يلصق به دون أن يتعرض من يتفوه بكلِّ بذاءة ضده لأدنى عقاب، ولا تعد إهانة مشاعر ١,٢ مليار مسلم وجرحها بسبب نبيهم وتشويهه من الأخطاء السياسية!.

ولقد أقرت «آن مارى شيمل ـ Anne Marie Schimmel»ـ وذلك عن حق ـ ما يلى: «أثار محمد ـ أكثر من غيره من الشخصيات التاريخية ـ الذعر والكره، بل والاحتقار لشخصه فى العالم المسيحى. وما زَعْمُ دانتى من أن محمدًا فى الجحيم ـ ولعنه إياه ـ أى لمحمد ـ إلا تعبير عن شعور

عدد لا يحصى من مسيحيى العصور الوسطى»[٧]. وإلى يومنا هذا، تخجل الكنيسة الكاثوليكية وتخشى أن تعترف بمحمد قائدًا للإسلام ـ الذى اعترفت به ـ كإحدى طرق النجاة. وهذا يثير العجب؛ إذ إنَّ العالم الأمريكى مايكل هارت وضع محمدًا ﷺ على رأس قائمة الـ ١٠٠ شخصية التى أثرت فى تاريخ البشرية.

كانت تجربة الحروب الصليبية مع الشرق المسلم صدمة تبعتها نتائج عديدة.

فلقد بدأ الصليبيون مسيرتهم الخطرة إلى المدينة المقدسة بحملة اضطهاد لليهود فى منطقة الراين، وعندما وصلوا إلى المدينة المقدسة واستولوا على القدس عام ١٠٩٩، سالت حمامات دماء أهلها بشكل وحشى لا يمكن تخيله حتى يومنا هذا. أما فى عام ١٢٠٤، فقد دخلوا القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية المسيحية الشرقية وعاثوا فيها فسادًا، لاعتقادهم أنها مدينة خارجة عن الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها.

لم تشهد مدينة القسطنطينية المسيحية قبل هذا التاريخ أو بعده إفسادًا وأهوالًا كالتى لاقتها على أيدى الفرسان الصليبيين.

ولم يستطع الكثير من الصليبيين إغفال حقيقة أن هؤلاء المسلمين البرابرة المتوحشين الذين أتوا لمحاربتهم يفوقونهم تحضرًا ورقيًّا فى مجالات عديدة، على رأسها الجانب الأخلاقى. ولهذه الأسباب ظلت ذكرى صلاح الدين البطل المسلم الكردى سلطان العرب حية كأسطورة فى ذاكرة الغرب.

لقد تركت الحروب الصليبية فى الغرب ذكرى مؤلمة تؤرق أهله.

كما خلفت هذه الحروب فى خيال الغرب ذكريات تشمل حياة الشرق، وبخاصة الجانب الجنسى منها. إننى شخصيًّا ألمح الارتباط بهذا الماضى وذكراه فى صورة الشرق الحسية من منظور غربى، والتى نجد أبرز انعكاس لها فى أفلام هولى وود عن الشرق.

ولا يستطيع المرء أن ينكر صحة تحليل إدوارد سعيد القائل بأن الصورة الغربية للشرق هى فى جزء منها نتيجة لانعكاس رغبات وإسقاطات لا يعترف الغرب بأنه يُعانى منها.

أما بالنسبة للشرق، فقد كانت نتائج الحروب الصليبية فى مجملها أقل قسوة؛ حيث

---

(٧) «ومحمد رسوله ـ Und Mohamad Ist Sein Prophet»، ميونيخ (١٩٨١) ص ٧.

كان النصر فى آخر الأمر حليف الشرق. استمر هذا الاعتقاد حتى أيقنت شعوب الشرق مع كابوس الاحتلال فى العصور الحديثة بأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

فما أن انتهت الحروب الصليبية بشكلها التقليدى، حتى تعرض المسلمون واليهود لعملية تطهير عرقى فى إسپانيا الشديدة التعصب للكاثوليكية، استهدفت طردهم من إسپانيا التى ظلت لمدة ٨٠٠ عام تحت حكم المسلمين.

وبعدها حاول ملك البرتغال الشاب «Sebastiao» أن يفرض المسيحية على المغرب قبل أن يفقد حياته فى معركة الملوك الثلاثة عام ١٥٧٨ فى قصره الكبير، ووقعت بلاده نتيجة لذلك فى أيدى إسپانيا.

وبعد ذلك، دفعت فكرة حملة فرنسية تحت زعم «تحضير» مصر بنابليون إلى أن يأتى إلى مصر ويدعى أنه حامى الإسلام. وبعدها بوقت قصير، احتل الفرنسيون الجزائر عام ١٨٣٠. وتطل آثارهم المتمثلة فى كنائس متفاخرة، فى كلِّ ربوع المغرب العربى مثل تونس، عنابة، والجزائر العاصمة، ووهران، والرباط، والدار البيضاء.

ويذهل المرء عندما يقرأ أن ملك اليونان عندما حاول فرض المسيحية على المناطق خارج ميناء أزمير عام ١٩٢٢، حرص على أن تطأ قدماه الأرض التى وطأها الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد فى الحرب الصليبية الثالثة عام ١١٩٠.

ولقد كانت حرب البوسنه ومعارك إبادة مسلمى كوسوڤا حروبًا دينية من وجهة نظر الصرب واليونان، كانت حروبًا صليبية متأخرة للقضاء على آخر الآثار الإسلامية فى البلقان.

إنها حقيقة وواقع لا ينكر: لم تنته الحروب الصليبية حتى يومنا هذا من وجهة نظر المسلمين، حتى وإن لم يظهر الفرسان الصليبيون اليوم بدروعهم الحربية، بل فى ملابس رجل الأعمال. لا يعانى العالم الإسلامى وحده من ذلك. فلقد ذكر منذ فترة وجيزة أن أحد السفراء الأمريكيين قال لزميله اليابانى الذى أصابه الذهول: «إن لغتكم الصعبة تمثل عقبة تجارية غير متفق عليها»، أى يجب إزالتها طبقًا للوائح منظمة التجارة العالمية WTO [٨].

(٨) انظر: FAZ ٢١/ ١١/ ١٩٩٧، تحت عنوان: «آلام وهمية للفن ـ حوار ثقافى فى زمن العولمة».

ولقد استمر الغرب يستبيح انتقاد الإسلام حتى فى سياق غير دينى. فعلى العالم الإسلامى أن يختار بين الإسلام أو الأسلوب الأمريكى للحياة. ولقد عبر كارل مای عن هذا الموقف فى كتبه التى صاغت عقلية الألمان عن الشرق والإسلام.

لقد أثبت شاكر الرفاعى فى رسالته لنيل درجة الدكتوراه فى بون، أن كارل مای كان يكتب بتكليف من الكنيسة، وأنه قال على لسان إحدى شخصياته ـ برغم علمه بعدم صحة ذلك ـ إن المسلم يعتقد «أن المرأة لا تملك روحًا»(*). لقد توصل الرفاعى إلى أن كارل مای ـ على عكس رواياته عن الهنود الحمر ـ يصور فى رواياته عن الشرق الأخيار على أنهم فقط المسيحيون. «والقلة القليلة من الأخيار من المسلمين تتحول فى النهاية إلى اعتناق المسيحية»(٩).

ومن لا يكتفى بكل المؤشرات التى سبق ذكرها، فليتعمق فى نسق الفكر الحتمى لفرنسيس فوكوياما واستراتيچيات استبعاد الإسلام التى يتبناها صامويل هنتنجتون فى عصرنا الراهن.

يَعُدّ المسلمون مثل هذا التفكير إمپريالية ثقافية؛ لأنه ـ كما كان الوضع بالنسبة للصليبيين ـ ينطلق من فكرتين: أولاهما، تفوق العالم الغربى بنموذجه الحتمى المتقدم، وثانيتهما: حق العالم الغربى، بل واجبه، أن يربط باقى العالم به ويجعله يتبعه. يمكننا أن نلخص هذا الفكر فى المقولة الساخرة: The West... and the Rest. هذا التفكير يبعث الخوف فى نفوس المسلمين؛ حيث يمثل لهم خطر تهميشهم أو حتى استبعادهم من منظومة العالم.

وهذا التفكير ليس بالتفكير الجديد، بل إنه يعكس تفكير المستشرقين فى أسوأ صورة كما اعتنقه ومارسه مستشرقون بريطانيون وفرنسيون وهولنديون فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولقد خدموا مصالح القوى الاستعمارية، مثلهم مثل شخصية لورانس العرب(١٠) الشهيرة. ولقد عمل هؤلاء المستشرقون ـ المنتفعون بلا شك ـ على زيادة المعرفة بالإسلام ـ للجهات التى خدموها ـ ولكنهم عرقلوا المعرفة الحقيقية ومنعوا العلم بها عند عامة الناس بسبب الأحكام المسبقة ضد الإسلام.

(*) فى واقع الأمر تلك مشكلة بحثها آباء الكنيسة: هل للمرأة روح؟ وقد بينت ذلك كارين أرمسترونج فى كتابها The Gospell According to Woman» حين بحث «Council of Macon» فى القرن السادس: هل للمرأة روح؟ صفحة ٧١ ـ الناشر: «Anchor Books - Doubleday» ١٩٨٧ ـ (المترجم).

(٩) نقلًا عن نور رقم ١٩ ـ ٢٠ كولونيا يوليو ١٩٧٩، ص ٣٦.

(١٠) لقد خلق لورانس العرب (١٨٨٨ـ ١٩٣٥) بكتابه «أعمدة الحكمة السبعة» أسطورة عن نفسه. فلم يكن متخصص فى علوم الإسلام ولا خبير باللغة العربية وآدابها.

لم يقتنع أحد فى ذلك الوقت بالحكمة القائلة: «ينبعث النور من الشرق»، بل اعتقد الكثيرون أنهم يشهدون المرحلة الأخيرة فى حياة الإسلام الذى يوشك على الانقراض. حتى إن ماكس هنينج كتب فى مقدمة ترجمته للقرآن عام ١٩٠١: «يبدو أن الإسلام قد استنفد دوره السياسى». ولم يكن أحد ليستطيع أن يعارضه مستندًا إلى حجج منطقية وواقعية.

لقد قام عدد من المستشرقين الألمان من بينهم كارل بيكر، وجوستاف جرونبوم بوصف الإسلام من منطلق إبراز ما يفتقده الإسلام حتى يصبح أوروبيًّا. فلقد توصل جرونبوم إلى النتيجة التى لا يصدقها عقل، وهى أن الحضارة الإسلامية لا تشارك الحضارة الغربية فى رؤياها الجوهرية، وأن هذه الحضارة لا تهتم بتحليل ذاتها، ولا تهتم بدراسة الحضارات الأخرى[١١].

وأبلغ مثال على أن المغالطات التاريخية المستقرة فى الأذهان والوجدان يمكن أن تستمر إلى يومنا هذا، هو ما اتضح أخيرًا عندما ادعى السيد بيترشتاينباك رئيس الكنيسة الإنجيلية بمقاطعة Hessen Und Nassau عام ١٩٩٦، فى حديث أذيع بالتليفزيون الألمانى أن الإله الذى يعبده المسلمون غير الإله الذى يعبده المسيحيون. ولك أن تتخيل معنى هذا الكلام، خاصة إذا تفوه به إنسان موحد غير مشرك: فإذا كان هناك إله واحد فقط، وهو ليس الإله الذى يعبده المسلمون، فإن إلههم ـ أى إله المسلمين ـ ليس بإله، بل هو وثن. وهل يندهش المرء ـ إذن ـ حين يقرأ فى مجلة Bunte موضوعًا فى عام ١٩٩٨ يتساءل فيه كاتبه: «هل انتقل الخطر الآن من موسكو إلى مكة؟». وما زالت هناك فصول جديدة تكتب فى تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام. لقد كان الإسلام منذ بدايته يضع صوب عينيه الانتشار فى العالم أجمع. ولقد تحقق له هذا على الأخص فى وقتنا هذا بفضل الثورة التكنولوجية والعولمة. فلقد أدى هذا ـ ضمن ما أدى ـ إلى أن يكون للإسلام مواقع عديدة على الإنترنت، بحيث يستطيع أى إنسان أن يطلع على سُنَّة الرسول كاملة، وعلى القرآن فى أى لغة يرغبها بمجرد لمسه مفتاحًا.

يبدو أن الإسلام قد وجد لنفسه موضعًا رصينًا وعميقًا فى أمريكا وغربى أوروبا، خاصة منذ سبعينيات القرن. وهذا الوجود الذى ترسخ بمرور الوقت يُعَدُّ نقلة وقفزة نوعية فى علاقات الإسلام بالغرب. فلقد أصبح الإسلام، حتى فى ألمانيا ـ سواء باعتراف حكومى أم لا ـ ظاهرة دائمة[١٢].

---

(١١) نقلًا عن Salvatore، ص ١٢١.

(١٢) «Der Spiegel» عدد خاص ١/ ١٩٩٨، ص ١١٠.

واضح أن المسلمين الذين يستوطنون ألمانيا يتأقلمون، ولكنهم لا يذوبون ولا تضيع هويتهم الأصلية. ولقد تكونت على مر الوقت صورة تشمل ثلاثة أجيال تشترك فى خصائص واحدة إن ـ لم تكن تتطابق ـ فى كلٍّ من فرنسا وإنجلترا وألمانيا.

يكون الجيل الأول عادة أقل تمسكًا بدينه عندما يصل بلد المهجر، ثم يعود إلى التمسك بعقيدته؛ لأنها تمثل له فى الغربة جزءًا من الوطن وترابطًا اجتماعيًّا. ويمكن أن يكون ذلك رد فعل يتسم بالعناد تجاه التفرقة التى يتعرض لها فى بلد المهجر، وتؤدى الحرية التى يعيشها المسلم للتعرف على دينه وممارسته دون وصاية ورقابة حكومية واضطهاد فى أول الأمر، دورًا إيجابيًّا.

ولا يعود الجيل الأول ـ كما خطط ـ لموطنه؛ لأن الجيل الثانى لا يرغب فى هذا. هذا الجيل، أى الجيل الثانى، يعيش بين عالمين ويدفع غالبًا ضريبة تجربة الهجرة؛ لأن هذا الجيل غير مرغوب فيه ولا يتمتع بفرص إيجابية، سواء فى وطنه أو في بلد المهجر. وهذا الجيل هو الجيل الذى يتهدده الخطر؛ حيث يحاول جاهدًا أن ينال القبول والاعتراف به، ويبدو له الإسلام فى هذا الصدد عائقًا خاصة فيما يتعلق بعلاقة الجنسين.

وتبدو الصورة مختلفة تمامًا بالنسبة للجيل الثالث، خاصة فيما ينتظره فى المستقبل. وهذا الجيل يمثل أهمية بالغة لمستقبل الإسلام.

هذا الجيل يسكن الغرب ويتحدث اللغتين، اللغة الأم ولغة المهجر بطلاقة، ولذلك فجميع فرص التأقلم مهيأة له. ولكن هذا الجيل يتضح له أن الأمر ليس كما تصور؛ لأنه «مختلف» بسبب لون البشرة والعيون والشعر، وبسبب الاسم أو لأنهم مسلمون. وانطلاقًا من هذا الوضع يقول هذا الجيل بعناد بالغ: «إذا كنتم تعتقدون أننا مختلفون، إذًا فنحن مختلفون ولسنا مثلكم»!. ويمارسون اختلافهم هذا، ويشكلون تنظيمات، ولا يقبلون التفريط فى حقوقهم، ولا أن يسلبهم أحد لقمة العيش وأسباب الحياة. وتجد بين هؤلاء الشباب مسلمين فى غاية النشاط وعلى استعداد تام للعمل على نشر الدعوة والتضحية من أجل هذا الهدف أكثر مما تجد بين الجيلين السابقين. وهؤلاء يتولون مسئولية مراكز إسلامية وإدارتها، كما هو الوضع فى مدينة آخن.

أما الأتراك، فيمثلون استثناءً ملحوظًا فى هذا الشأن. فالجيل الثالث من الأتراك يظل فى معظم الأحوال معلق الأنظار بتركيا، وبالتالى يعيش فى ألمانيا كما لو كان فى محطة، ولا يمارس دعوته إلَّا بين الأتراك، وبالتالى لا يؤثرون فى بيئتهم بمفهومها الأوسع.

فلا تجد أثرًا لهذا السلوك بين المهاجرين العرب، خاصة أن أعدادًا هائلة منهم ـ على الأقل فى ألمانيا ـ من الأكاديميين. ولقد أدى هذا التوسع للإسلام بانتشار المسلمين فى أنحاء العالم كافة إلى وجود تجمعات إسلامية فى شمال العالم وجنوبه، شرقه وغربه.

ومن يرغب فى معايشة هذا الجو، فله أن يحضر المؤتمر الدولى السنوى الذى يقيمه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر فى القاهرة؛ حيث يجد مسلمين يمثلون أكثر من ثمانين دولة.

ـ ٣ ـ

هذا هو تاريخ علاقة الإسلام بالغرب التى تعود إلى أكثر من ألف عام، منها كثير من سنوات الخصومة، بل والحروب. ولقد بدأت العلاقات والغرب ينظر إلى الإسلام على أنه خطر، وتحول بعد ذلك لما يزيد على ٢٥٠ عامًا إلى مجرد مشكلة، ثم عاد فى منتصف القرن العشرين ليطل ـ من وجهة نظر الغرب ـ كخطر مرة أخرى. ويمتد تأثير المشاعر المضطربة والمظالم والمعلومات المغلوطة إلى يومنا هذا، وكل هذا ما زال يموج تحت السطح. وتمثل الذاكرة الجمعية حقيقة سياسية ذات تأثير بالغ حتى بكل ما تحمله من أخطاء ومغالطات.

لقد وصف ويلفرد كانتويل سميث هذا التلازم كما يلى: «لقد خَبر الغرب عداءً تجاه الإسلام لألف سنة ماضية. هذا العداء يسىء الكثيرون تقدير عمقه وطول دوامه. لم يتبين الوعى الغربى فى كلٍّ من الهند والصين خطرًا دائمًا، أما الإسلام، فقد كان يمثل دائمًا وأبدًا خطرًا يهدد الغرب. وإذا ما قارنا أفكار ومشاعر الغرب المعادية للإسلام، نجد أن مشاعر الغرب المعادية للشيوعية كانت أقل حدة وأقصر عمرًا»[١٣]. وتؤدى الذاكرة الجمعية دورًا أساسيًّا عندما يحذر أتباع اتجاه الوسط المسيحى فى منشوراتهم من خطر أسلمة ألمانيا. وعندما يتم إشعال الحرائق فى مراكز إسلامية، وعندما تتلقى شخصيات ألمانية مسلمة نشطة بلاغات تهديد من مجهولين، فقد كان يمكننا أن نَعُدَّ كلَّ هذا من قبيل ضيق الأفق والتصرفات الرعناء التى لا أمل لها فى المستقبل، لولا أن وسائل الإعلام تعمل جاهدة على إشعال المزيد من نار الحقد وتثبيت الأحكام المسبقة ضد الإسلام، وترسيخها فى عقول الناس، وهذا هو الموضوع الحزين للفصل القادم.

***

(١٣) Smith نقلًا عن برفيز منصور: Muslim World ص ٦ و Book Review 14/4/1994